ملاحظات أوّلية حول قياس «الزَّمن السّجني»

قراءة في كتابات مُعتقَلين سياسيّين تونسيّين

هيفاء زنكنة

تكشف مذكّرات سجناء سياسيّين سابقين، ينتمون إلى أحزاب وحركات سياسية مختلفة، في البلاد العربية، عن التغيّر التدريجي بإحساسهم بالزَّمن، وخصوصاً عند تعرّضهم لتجربة السجن الانفرادي، أو الإهانة والتعذيب الجسدي والنَّفسي، أو كِلَيْهِما معاً. وهي ممارسات ما زالت مستمرّة، خلافاً للتوقّعات والآمال، في حِقَبِ ما بعد الاستقلال والتحرّر من الاستعمار الأجنبي، ليزيد من وجعها وعمق تأثيرها الإحساس بالإحباط وظُلم «الأهل». وإذا كانت أعداد المُعتقَلين، سياسيّاً، والمتزايدة بحسب الحِقَبِ الزَّمنية وصعود نظامٍ استبداديٍّ على أنقاض نظامٍ آخر، تُجبِر إدارة السجون على حشر المُعتقَلين معاً، إلّا أنّ تجربة السجن، غالباً ما تبقى «فرديّة لا تُكتَب بنون الجماعة» لأنّها «تؤسِّس لفردانية الإنسان» وحَفرِه في داخل نفسه المحكومة بمتلازمة الزمان والمكان، وإحساسه بمتغيِّرٍ زمنيّ فريد من نوعه هو الزَّمن السجنيّ، على جموده، إزاء ثبات المكان/ الفضاء المُغلَق.

تُثير قراءة مذكّرات أربعة سجناء سياسيّين سابقين، من ذوي الانتماءات السياسية المُختلفة، المنشورة في مرحلة ما بعد الثورة التونسية في 14 كانون الأوّل(ديسمبر) 2011، وهي مذكّرات لا

تختلف كثيراً في تفاصيل أحداثها، غير الإنسانية، عن مذكّرات المُعتقَلين في بلدان عربية أخرى، فضلاً عن أسرى الاحتلال الإسرائيلي، من منظور ماهيّة الزَّمن والإحساس به، تُثير هذه القراءة العديد من الأسئلة. فما الذي يعنيه الزَّمن للمُعتقَل وهو ما زال في فترة الاستجواب، أو بعد إصدار الحُكم عليه؟ وكيف يتعامل مع الوقت، سواء أكان في« قبر تحت الأرض»، وفي حائط الزنزانة المثبّتة بسلاسل حديد يُربَطُ بها السجناء المحكومون أو المعاقَبون، وحيث لا يمكنهم استعمال دَورة المياه فيتبوّلون في مكانهم، أو مع مجموعة من المُعتقَلين قد يلهي وجودهم إلّا أنّه لا يُعوَّض بشيء؟

سأتناول في هذه المقالة كيفيّة تعامل كاتِبي المذكّرات – الروايات، من المُعتقَلين السابقين، مع الزَّمن وتعدُّد مستوياته، وانعكاس ذلك على يوميّات بقائهم في السجن، وقدرتهم على الصمود النفسي والجسدي، والقدرة على التذكّر، ومحاولة التمييز بين الحاضر والماضي، ومحاولات استعادة الذّات الإنسانية وأحلامها، بعد إطلاق السراح، من خلال الكتابة وتوثيق شهادات الذين تُحاوِل الأنظمة المُستبدَّة تغييبهم من الذاكرة الجماعية.

الخلفيّة السياسيّة

بعد نضالٍ مرير، تمّ إعلان استقلال تونس عن الاستعمار الفرنسي في 20 آذار (مارس) 1956. تلاه بعد عام، انتخاب الحبيب بورقيبة، أمين عامّ الحزب الدستوري الحرّ، رئيساً للجمهورية، وهو الرجل الذي سيؤثِّر، سياسةً ومنصباً، على حياة الشعب التونسي لعقود مُقبِلة، وخصوصاً بعد أن تمّ تغيير الدستور عام 1975 لتمكينه من الرئاسة مدى الحياة.

تميّز بناء دولة الاستقلال التونسيّة بالهَيمنة الحزبيّة الضيّقة، ونجاحاتٍ محسوبة في مجالات التعليم والصحّة، وإصدار مجلّة الأحوال الشخصية التي منعت تعدّد الزوجات، وإلغاء نظام التعليم الزيتوني الدّيني. سياسياً، تميّزت الفترة بالنّزاع مع شخصيَّتَيْن لم يَكُن الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة على وفاق معهما، وانعكست الخلافات على حجم القمع السياسي العامّ، وهما: الشيخ عبد العزيز الثعالبي، المناضل الذي جمع بين الدّين والسياسة. وصالح بن يوسف، الزعيم السياسي الذي تعرَّض لمظالِم تاريخية، وتقول بعض المصادر الراجحة إنّه تمّ اغتياله، عام 1961، في ألمانيا من طرف مبعوثٍ خاصّ من بورقيبة. وفي كانون الأوّل (ديسمبر) 1962، أدّى الكشف عن محاولة انقلابية إلى

حظر الحزب الشيوعي التونسي. فاستقبلت المعتقلات، حتى الثمانينيّات، فضلاً عن اليوسفيّين، اليساريّين والشيوعيّين، على اختلاف تنظيماتهم.

طغى على فترة الثمانينيّات، وحتّى انبثاق الثورة ضدّ نظام زين العابدين بن علي، وعلى الرّغم من رفع الحظر عن الحزب الشيوعي عام 1983، طغى القمع السياسي الموجَّه ضدّ كلّ نَفَسٍ معارض، وإن نال الإسلاميون، أعضاء حركة الاتّجاه الإسلامي أوّلاً، ثمّ النهضة لاحقاً[1]، النصيب الأكبر من القمع بمختلف أشكاله، وخصوصاً بعد ثورة الخبز، وبسط زين العابدين بن علي، وزير الداخلية، نفوذه على الأجهزة الأمنية منذ عام 1986. وفي تشرين الثاني(نوفمبر) 1987، أَبعَدَ بن علي الرئيس بورقيبة، معلِناً تولّيهُ الرئاسة، وبقاءه رئيساً حتّى ثورة 14 يناير(كانون الثاني)2011 الشعبيّة، المُطالِبة بالحرّية والكرامة، بعد أن أصبح التضييق السياسي والقمع الفكري مُلازمَيْن للتدهور الاقتصادي ووحشية الفقر المدقع، سواء في العهد الـ«بورقيبي» أم الـ«بنعليلي»[2]. وقد أدَّت ثورة 14 يناير إلى إنهاء قمع النّظام الفكري، وإلى فتْح الأبواب أمام حرّية النشر والطباعة بلا رقيب. فشهدت الأوساط الثقافية التونسية، في فترة الانفتاح السياسي التي أعقبت ثورة 14 يناير 2011، ومع إطلاق سراح المُعتقَلين السياسيّين، نشْر مجموعة من الكُتب لمؤلّفين إمّا عاشوا تجربة الاعتقال بأنفسهم، أو اختاروا الكتابة عن مِحنة الاعتقال السياسي والقمع الفكري كموضوع، في مرحلة ما بعد الاستقلال. ما سأركِّز عليه في هذه الورقة هو أربعة كُتب لمؤلّفين مرّوا بتجربة الاعتقال واختاروها موضوعاً لكُتبهم، وقد نُشِرَت بعد الثورة، باستثناء كِتاب فتحي بن الحاج يحيى الذي تمّ نشره،لأوّل مرّة، أثناء حُكم بن علي. الكُتب الأربعة هي:

1 -«**الحبس كذاب .. والحي يروح**» - **ورقات من دفاتر اليسار في الزَّمن البورقيبي**- لـ فتحي بن الحاج يحيى[3].

(1) أُعلِن عن الحركة رسمياً في 6 يونيو/ (حزيران) 1981 وتغير اسمها لاحقاً ليصبح (حركة الاتّجاه الإسلامي)، وفي فبراير/ (شباط) 1989 أصبحت «حركة النهضة».

(2) قام الأستاذ البشير الجويني، الباحث التونسي في العلاقات الدولية، مشكوراً بتلخيص أهمّ مميّزات مرحلة ما بعد الاستقلال في بريد إلكتروني استلمته بتاريخ 22/ 4/ 2016.

(3) فتحي بن الحاج يحيى، **الحبس كذّاب.. والحيّ يروح - ورقات من دفاتر اليسار في الزّمن البورقيبي** -، الطبعة الثالثة، (تونس: كلمات عابرة، 2011).

2 -و«**سنوات الجمر**» - **شهادات حيّة عن الاضطّهاد الفكري واستهداف الإسلام في تونس**- مذكّرات عالِم جامعي وسجين سياسي - لـ المنصف بن سالِم[4].

3 -و«**برج الرومي أبواب الموت**» - **أوّل رواية عن تعذيب المساجين الإسلاميّين في السجون التونسيّة**- لـ سمير ساسي[5].

4 -و«**أحباب الله**» - **رواية عن فساد نظامَيْ بورقيبة وبن علي كما عاشه سجين سياسي بين سجنَيْ الكاف والقصرَين**- لـ كمال الشارني[6].

وكان بودّي أن أُضَمِّنَ هذه القراءة كتاباً لإحدى النساء المُعتقَلات، إلّا أنّني لم أتمكَّن من العثور على أيّ كتاب، على الرّغم من وجود مئات النساء المُعتقلات، لأسبابٍ سياسية، في حقبتَيْ حُكم بورقيبة وبن علي، لكنّ ما نُشِر عن تجربتهنّ وبأقلامهنّ كان نادراً جدّاً.

اختار المؤلّفون تصنيف كتبهم، كأجناس أدبية مختلفة. يصف فتحي بن الحاج يحيى كتابه بأنّه «ورقات من دفاتر اليسار»، مشيراً إلى أنّ صلته الأولى بالكتابة نشأت في السجن. وصنَّف الأستاذ الجامعي الراحل المنصف بن سالم كتابه بأنّه «شهادات حيّة»، بينما اختار الصحافي كمال الشارني والصحافي والشاعر سمير الساسي جنس الرواية. تمكَّنَ فتحي والمنصف، باختيارهما العنوانَين المستندَين إلى الذاكرة، وكونهما الراوي والشخصيّة الرئيسة في آنٍ، وما يقدّمانه هو شهادة ذاتيّة من منطلق سياسي محدَّد، يساري في حالة الحاج بن الحاج يحيى، وإسلامي في حالة المنصف بن سالم، تمكّنا من التمتّع بحرّية التنقّل بين ما هو شخصي وعامّ، وما بين المذكّرات وشذرات اليوميات، تاريخاً ورؤية، من دون الخضوع لتحديدات الأجناس الأدبية، المتعارف عليها، بمواصفاتها الأساسية على الأقل، والتي لم يتمكّن الشارني والساسي من تجاوزها حين اختارا

(4) المنصف بن سالم، **سنوات الجمر - شهادات حيّة عن الاضطّهاد الفكري واستهداف الإسلام في تونس**-، (طباعة خاصّة، 2013).

(5) سمير ساسي، **برج الرومي أبواب الموت -أوّل رواية عن تعذيب المساجين الإسلاميّين في السجون التونسية** -، الطبعة الرابعة، (تونس: منشورات كارم الشريف، 2012).

(6) كمال الشارني، **أحباب الله - رواية عن فساد نظامي بورقيبة وبن علي كما عاشه سجين سياسي بين سجنَيْ الكاف والقصرَين**-، (تونس: منشورات كارم الشريف، 2012).

تصنيف كتابَيهما كرواية. ويبقى المُشترَك في هذه النصوص هو ما يُطلِق عليه محمّد الزموري اسم «محكيّات الحياة»، حيث يمثّل مركز المادّة المَحكيَّة فضاء السجن، المعزول، جغرافياً، عن العمار الآهل، ويُصبح موضوع الاعتقال مادّة سرديّة تخيُّلية بواسطة مخزون الذاكرة المُستعاد، وهي عودة للتاريخ من أجل محاورته ومساءلته[7].

أسباب الاعتقال

المُلاحَظ أنّ بالإمكان تتبّع الانتماء السياسي للمؤلّفين، بحسب الحقبة الزَّمنيّة التي تمّ فيها اعتقالهم. فقد اعتُقل بن الحاج يحيى عام 1975 لانتمائه الى منظّمة العامل التونسي[8]، وحُكم عليه بالسجن خمس سنوات ونصف العام. ويؤرِّخ كتابه لتجربة اعتقاله ورفاقه السابقين من قبله في الستينيّات والسبعينيّات، وهي الحقبة اليسارية التونسية، حين «كان العالَم بأسره يعيش على وقع أسطورة غيفارا، وملحمة فيتنام، وصعود الثورة الفلسطينية إلى مصاف الحدث العالَمي والإقليمي، وجاذبيّة الثورة الصينية في وقوفها إلى جانب مسحوقي العالَم»[9].

أمّا بقيّة الكُتب، والتي تُشكِّل معظم المنشور، حالياً، فتوثِّق تجربة اعتقال الإسلاميّين بدءاً من الثمانينيّات، الفترة المتميّزة بتصاعد نشاط الحركة الإسلامية (حركة النهضة في ما بعد)، وحظرها من قِبل نظامَيْ بورقيبة وبن علي من بعده.

فقد اعتُقِلَ الطالِب كمال الشارني في يناير(كانون الثاني) 1986، أثناء إضرابات المعاهد الثانوية المُطالِبة بإسقاط الحكومة، وتضامناً مع أساتذة الثانوي الذين أُرسِلَت إليهم قوّات الشرطة وميليشيات اليقظة التابعة للحزب الاشتراكي الدستوري، ونال حُكماً بالسجن مدّة خمسة أعوام ونصف العام من أجل ذلك، قضى منها ثلاثة أعوام ونصف العام بين سجنَيْ الكاف والقصرَين.

(7) سؤال الكينونة في المتخيّل السجني، محمّد الزموري،
http://www.aljabriabed.net/n78_06azammouri.(1).htm

(8) منظّمة العامل التونسي: حركة يسارية تونسية كانت ناشطة بين أوائل السبعينيّات ومنتصف الثمانينيّات، وخصوصاً في صفوف الطَّلَبة. تعرَّض أعضاؤها للاعتقال والمُحاكمات منذ عام 1973، ثمّ عامَيْ 1974 و1975. أُفرِج عن آخر معتقلي الحركة عام 1980.

(9) بن الحاج يحيى، المرجع السابق، ص 91.

وسُجِن الصّحافي سمير ساسي لمدّة عشر سنوات بتهمة الانتماء إلى جمعية غير مرخّصٍ لها. بينما تمّ اعتقال العالِم والأكاديمي الراحل المُنصف بن سالم (1953–2015) في نوفمبر(تشرين الثاني) 1987، بتهمة انتمائه لحركة النهضة، وحُكِم عليه بعشرين سنة، منها عشر سنوات حُكم خلالها بالأشغال الشاقّة وعشر سنوات بالمُراقَبة الإدارية.

لماذا الكتابة؟

يتّفق المؤلّفون، جميعاً، على أهمّية توثيق التجربة، حيث يجثم الخوف من النسيان، نسيان التجربة المريرة، وأسبابها وآثارها، ومحاولة استخلاص الدروس لتفاديها مستقبلاً، وإن كان ذلك ثقيلاً على صدور المؤلّفين، حتّى ولو اختلفت كيفيّة التعبير عن الأمر.

يكمن خوف بن الحاج يحيى من النسيان، في طَي الزَّمن لصفحات من تاريخ ووجوه رفاقه المناضلين مع رحيلهم: «ومع كلّ وفاة تنفتح هوّة في العاطفة وثغرة في الذاكرة»[10]؛ ما حثّه، تدريجيّاً، على الكتابة وتجميع ما كتبه، بعد مرور عقدَين من الزَّمن، تقريباً، على اعتقاله: «لم أفكِّر يوماً في شيء اسمه مذكّرات أو ذكريات (وحتّى وإن فكَّرت فقد بقي الأمر حلماً كأحلامي الأخرى في كتابة روايات وأحاديث عن التيه والعبث ورحلة البحث عن المعنى المنفلت دوماً) ، وإنّما هي غيوم تجمَّعت كان لا بدّ أن تنهمر»[11].

تأخذ شهادة بن سالم طابعاً شخصياً أكثر من البقيّة في سرده: «كتبتُ هذه الخواطر في ظلّ قهرٍ وظُلم لم يسبق لهما مثيل في بلدي العزيز لأسجِّل للتاريخ أنّني لا أهاب بطش الجبّارين»[12]. وقد كَتَبَ في التوطئة: «هذا الكتاب عبارة عن مذكّرات شخصيّة ولكنّها تمتاز بفترة زمنيّة مهمة في تاريخ تونس الحديث، لذلك يمكن اعتباره وثيقة تاريخية وشهادات حيّة لأحداث هامّة قد يكون لها الأثر الكبير على مستقبل البلاد والعباد».

يقول الشارني إنّه كَتَب للحؤول دون النسيان، أي «لكتابة شيء يشبه المذكّرات عمَّ يحدث لي ولجيلي من شباب وأطفال الوطن، وخصوصاً حين تحوَّلت غرفة المساجين

(10) فتحي بن الحاج يحيى، مرجع سابق، ص 20

(11) فتحي بن الحاج يحيى، مرجع سابق، ص 21

(12) المنصف بن سالم، مرجع سابق، ص 96

الصغار الموقوفين بسجن الكاف في مارس 1986 إلى جحيم أرضي، ينغلق يوميّاً على 77 سجيناً، منهم 52 تلميذاً... بدأتُ أكتب تفاصيل أيّامنا الّتي لا تُحتَمَل في الغرفة، وحكايات التلاميذ القادمين الجُدد عن وحشيّة الشرطة في قمع المظاهرات وعن تعذيب التلاميذ الذي أصبح سلوكاً عاديّاً في مراكز الأمن... بدأتُ أكتب شهادة عمَّ يحدث لنا... كتبتُ، أساساً، كي لا ننسى، شهادة كي تجد الأجيال القادِمة ما يعينها على فهم الظروف التي جعلت، كلّ مَن في الدَّولة، يغولون علينا نحن أطفال الشعب»[13].

وبلسان فخر الدين، بطل رواية «برج الرومي» ، الذي تعرَّض للملاحقة والمراقبة الإدارية بعد الإفراج عنه، يخبرنا سمير ساسي: «الأجواء داخل السجن كانت تفرض عليّ أن أضع تفاصيلها، ليقف القارئ على حجم المعاناة وحتّى تظلّ هذه التجربة المريرة راسخة في الذاكرة وترتقي إلى مصافّ التجارب الإنسانية».[14]

السجون

قضى المؤلفون الأربعة فترات زمنية تتفاوت في مدتها، في أماكن احتجاز وسجون نظامَي بورقيبة وبن علي المختلفة، حيث تعرّضوا جميعاً، بلا استثناء، للتعذيب الوحشي بأنواعه، على اختلاف أعمارهم وانتماءاتهم السياسية. الملاحظ في سردية تعذيبهم، في الكتب الأربعة، أنهم مرّوا بذات الأماكن وبتسلسل متشابه تقريباً حيث وضعوا في فترة التحقيق الأولى في مقرات وزارة الداخلية، تلاها وضعهم في العزل الانفرادي في أحد السجون سيئة الصيت، أو ما يسمى السجن داخل السجن، ثم وضعهم مع مجموعة من السجناء قبل انتهاء محكوميتهم وإطلاق سراحهم، ومن ثم إخضاعهم للمراقبة الأمنية والإدارية بعد إطلاق السراح، كما تشهد حالة بن سالم. من بين السجون، سيئة الصيت، التي تنقّل بينها المؤلفون، في أرجاء تونس: 9 أبريل في تونس العاصمة، والقصرين، والكاف في شمال غربي تونس، وبرج الرومي.

(13) كمال الشارني، المرجع السابق، ص 20

(14) «برج الرومي.. ذاكرة سجين إسلامي»، **الجزيرة نت**، 30/ 9/ 2011، مُتاح على :
http://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2011/9/30

الزَّمن السجنيّ

ما الذي يعنيه الزَّمن للمُعتقَل وهو ما زال في فترة الاستجواب، أو بعد إصدار الحُكم عليه؟ وكيف يتعامل مع فائض الوقت، سواء أكان معزولاً وحده في«قبر تحت الأرض» أو قابعاً في زنزانة ذات سلاسل حديد يُربَطُ بها السجناء المحكومون أو المعاقَبون مع مجموعة من المُعتقلين من رفاقه، أو من سجناء الحقّ العامّ؟

تُبيِّنُ استعادة الأحداث المُستخلَصة من الذاكرة، بلا تسلسل أو ترتيب، في الكُتب الأربعة، طغيان زمن الاعتقال وآنيّته (الحاضر السّجني) على ماضي المُعتقل ومستقبله، متمثّلاً بسرديّة تفاصيل التعذيب وما يثيره من أحاسيس وعواطف. «فالسجن سوس الذاكرة» كما يقول الساسي، ويعتذر الشارني من القرّاء لعدم خضوع النصّ لأيّ ترتيب زمني: لقد بدأتُه من أكثر اللّحظات تأثيراً في ذاكرتي، مروراً بالبدايات، مع العودة إلى التفاصيل والاستطرادات»[15].

ويرتبط المفهوم المُختلف للزَّمن السجنيّ، بحالة المُعتقَل النفسيّة، ودرجة تعذيبه، وفترة عزلته في الزنزانة الانفراديّة. وهي الفترة الأشدّ قسوة، لأنّها مرحلة التحقيق الأوّلي التي يحاول فيها الجلّاد فرض إرادته الكلّية على المُعتقَل، عبر تعريته من إرادته وسلخه إنسانيّته وهو في أكثر لحظاته هشاشةً واغتراباً. يتلاحم انقطاع الزَّمن هنا بوحشية ووحشة المكان، المكان الذي يصفه بن سالم «وضعوني في زنزانة في السجن الانفرادي (في السجن المدني 9 إبريل)، وهي عبارة عن قبر تحت الأرض. الفراش خرقة وسخة لا يتجاوز سمكها بوصتَيْن (5 سم)، أفترِشُها على قاعة إسمنتيّة شديدة البرودة والرطوبة. في حائط الغرفة مُثبَتة سلاسل حديد يُربط بها السجناء المحكوم عليهم بالإعدام أو المعاقبون، ولا يمكنهم استعمال دورة المياه الموجودة داخل الزنزانة فيتبوّلون في مكانهم، رائحة بولهم تبقى دوماً سائدة في الغرفة يستنشقها كلّ زائر للزنزانة».[16]

عن المكان ذاته يكتب بن الحاج يحيى: «المرحلة الأولى من إيقافي دامت بين 21 مارس وبداية أكتوبر 1975، عرفتُ فيها علاوة على التعذيب الجسدي، قساوة السجن

(15) كمال الشارني، مرجع سابق، ص 12
(16) المنصف بن سالم، مرجع سابق، ص 49.

الانفرادي بين زنزانات محلّات أمن الدولة في مبنى وزارة الداخلية والزنزانة الانفرادية في سجن 9 أفريل». مُستطرداً عن كيفيّة تعاقُب الزَّمن:« مضى شهران تقريباً على مكوثي قابعاً مُقيّداً إلى فراشٍ بحجرة لا تتّسع لأكثر من واحد... كان ليلنا في الحجرة ونهارنا في غرفة التعذيب لاقتلاع ما تيسّر من الاعترافات والمجابهات مع رفاق آخرين... كنتُ أعشق اللّيل وحجرتي الصغيرة التي يحملونني إليها في شبه غيبوبة. وأخاف الصباح كلّما دبَّت الحركة في الدهليز، وأسمعهم قادمين لاقتيادي إلى غرفة العمليّات. وكان كلّ صباح أتعس من سابقه، لأنّ وقع الضرب على جراح ودمل اليوم السابق أوجع بكثير من وقع اليوم الأوّل»(17).

وعاش بطل رواية سمير ساسي محنةَ النَّقل من مكان إلى آخر، ضمن السجن نفسه، ليزداد إحساسه بالوحشة والتغريب عن بقيّة المُعتقلين.«فإذا بي في قعر مُظلمة أحاطها العسس من كلّ مكان، كأنّ الطير تخطفت منها الرجال فلا ترى فيها إلّا ناظر غرفة ينقل فعلك وقولك إلى كبير العسس، فإنْ رابه شيء قذف بكَ إلى قنّ الدجاج عارياً كيوم ولدتكَ أمّك تُشَدُّ فيه إلى سلسلة أُلصِقَت إلى حائط القنّ، فتبقى ما شاء لك العسس أن تبقى منبطحاً على ظهرك تتبوّل وتتغوّط في مكانك»(18).

أمّا الشارني الذي اعتُقِلَ مع أربعين تلميذاً، فقد أَعَدَّهُ التعذيبَ في الجحيم السفلي، للتوقيع على أيّ اعتراف يُراد منه: «يملك أعوان الشرطة في تاجروين(19) مقرّاً للتعذيب والإيقاف تحت الأرض، حيث بدا لنا عندما هبّت رياح هذه المحنة أنّ رحمة الله لا تعرف طريقها إلى ذلك الجحيم السفلي. أصبحت جاهزاً عند اليوم الثالث للتعذيب، منذ تاريخ الإيقاف للتوقيع على أي اعتراف يقدّمونه لي، ولو كان فيه أنّني أنا الذي اغتال الزعيم النقابي الكبير فرحات حشاد الذي اغتالته (اليد الحمراء) الفرنسية على ما تذكر كُتب التاريخ»(20).

يعيش المُعتقَل، في مرحلة التحقيق الأوّلي، حالة اضطّراب نفسيّ وخوفاً من الآتي

(17) فتحي بن الحاج يحيى، مرجع سابق، ص 115.

(18) سمير ساسي، مرجع سابق، ص 39.

(19) مدينة من مدن ولاية الكاف تقع في الشمال الغربي التونسي على مقربة من الحدود الجزائرية.

(20) كمال الشارني، مرجع سابق، ص 43.

يجعله مُتأرجِحاً ما بين التّيه الزَّمني المتخيَّل والواقع المحسوب بالدقائق، في عزلةٍ نفسيّة، قد تختلف من شخصٍ إلى آخر ومن مكانٍ إلى آخر، إلّا أنّها قاسية إلى حدّ الجنون.

وفي فيض الزَّمن المتوفّر، وفي المكان المُغلَق، والمُراقَب، والمعرَّض للانتهاك في أيّ لحظة، يستنبط المعتقَلُ أساليبَ مختلفةً للتكيّف العقلي والنفسي يعتمد فيها على خزينِهِ الدّاخلي من الذكريات (الماضي) وآماله (المستقبل)، محاولاً حماية ذاته من الانهيار تحت وطأة ذلّ المعاناة (الحاضر)، وليُشعِر نفسه بأنّه ليس وحيداً وأنّ العالَم ما زال موجوداً خارج ذهنه[21].

يقول الشارني: «أُواجِه عزلتي وحيداً إلّا من ذكرياتي وأحلام اليقظة حتّى بعد أن ألبسوني ملابس غرف العزل الزرقاء القذرة والتي لا تُغني من العري ولا البرد وحتّى عزلة الروح. بدأتُ أقاوم العزلة بالغناء. غنّيتُ كلّ الأغاني التي أعرفها ثمّ ألّفتُ التي لا أعرفها. غنّيتُ للحب وخيانات الفتيات، للحرّية والأمومة التي نكتشف في السجن أنّها آخر حصوننا الصادقة ضدّ الأقدار السيئة... غنّيتُ في عزلتي أيضاً، لذكرى رائحة سمك «الباربو» النهري، مشويّاً على ضفّة وادي ملاق، وادي طفولتي.... غنّيت وكم غنّيت للفراغ والعزلة في تلك الغرفة، وللخوف من المجهول... رويت لنفسي كلّ النكات والقصص القبيحة بيد أنّ ذلك لم يكن يجدي في مواجهة العزلة والخوف، هل تعرف العزلة، سيّدي؟»[22].

ويحدِّث بن الحاج يحيى نفسه ليخفّف من ثقل الصمت:«كان الصمت المحيط بي يقتلني بوحشته، فأتلهّى عنه بالحديث مع نفسي بصوتٍ عالٍ، وباستنباط حِيَل وألعاب وَهْميّة لقتل الوقت». «لم يكن عندي كِتاب واحد أو جريدة، ولا اتّصال لي بأيٍّ كان. أربعة جدران تُحيط بي وفراش في الرّكن، وأربع وعشرون ساعة في اليوم يستوجب قتلها بكلّ التكاليف»[23].

يتذكّر بن الحاج يحيى، كيف كان يتذرَّع « بأبسط الأعذار لمناداة الحارِس طمعاً في

(21) فتحي بن الحاج يحيى، مرجع سابق، ص 84.
(22) كمال الشارني، مرجع سابق، ص 46.
(23) فتحي بن الحاج يحيى، م. س.، ص85.

اقتناص لحظة حديث مع الآخر، وسماع صوت آدمي يذكّرك بأنّ العالَم ما زال موجوداً خارج ذهنك»[24].

مؤكِّداً، مرّة ثانية، قسوة توقّف الزَّمن وفراغه حتّى أثناء وجوده مع رفاقه: «كان الوقت يقتلنا بِطولِه وتَمَطُّطِه، فنقتله بابتداع حكايات، وأوهام، وخصومات، وسهرات، ونقاشات تعطي معنى لوجودنا كبشر قبل وجودنا كمناضلين وسجناء رأي وسياسة»[25].

«كانت الحيطان الأربعة تحمل بصمات وحكايات نزلائها مكتوبةً نقشاً بأظافرهم أو بدمائهم، كنت أُلهي نفسي بقراءة ما كتب رغم ضعف النور، وأتسلّى ببعض القصائد الرائعة والحِكَم التي تدل على نوعية النزلاء من قبلي»، يكتب بن سالم عن المحنة ذاتها، مكتشفاً، كما بن يحيى الحاج، بأن الحديث ، ولو مع الحارس، قد يبعد عنه شبح الانهيار النفسي: «خروجي من الزنزانة إلى الفسحة لا يتجاوز ربع ساعة في اليوم، خلالها وفي بعض الأحيان يصاحبني حارس يتحدّث معي، قال لي ذات مرة إنه يرأف لحالي ويريد أن يحدثني لأنني أبقى يوماً كاملاً من دون حديث وهذا شيء يدمر صحتي ونفسيتي. بقيت على تلك الحالة أكثر من شهر، نقلت بعدها الى غرفة عادية في السجن مع مجموعة من إخواني، وكان يوماً كيوم العيد من شدة فرحتي وفرحة إخواني بلقائي. استقبلوني بالتكبير وبصوتٍ عالٍ جداً هزّ أركان السجن»[26].

قياس الزَّمن

كيف يقيس المُعتقَل الزَّمن؟ بالسنوات والأيّام والساعات؟ بالدقائق؟ أو بحسب توقيت السجّان لوجبات الطعام والسماح بالذهاب إلى المرحاض أو الاغتسال، فضلاً عن منعه أو السماح له بزيارة الأهل، ودرجة التّواصل مع العالَم الخارجي بواسطة الرسائل أو قراءة الصُّحف والكُتب؟

في ظلمة السجن ينتفي معنى الزَّمن «الزَّمن عندنا سواء، نحتاج أحياناً إلى استعمال أصابعنا، نحسب الفاصل بين يومَيْن يشتركان في الاسم وينفصلان في الزَّمن... اليوم

(24) مرجع سابق، ص 84.
(25) مرجع سابق، ص61.
(26) فتحي بن سالم، مرجع سابق، ص 49.

وغداً وبعد غد وأمس، الكلّ سواسية في غرفة الحبس»[27]، يقول الساسي، ليستطرد بن الحاج يحيى موضحاً: «كنت أعيد رسم خارطة العاصمة في ذهني وأرى الناس يتجوّلون في الفضاء الواسع. بدا لي أوسع بكثير ممّا كنتُ أعرفه. نوع من البرمجة تتمّ في دماغ السجين في إعادة صياغة مقاسات المسافة والزَّمن داخل بضعة الأمتار المربّعة التي يعيش فيها، بفعل تعاقب اللّيل والنهار في حلقة دائريّة مفرغة، تقطعها بين الفينة والأخرى أخبارٌ تَرِد علينا من الخارج مثل أحداث المواجَهة بين النّظام والاتّحاد العامّ التونسي للشغل ... فندرك معها أنّ الزَّمن يسير بخطاه الطبيعية خارج أسوارنا. والأمر ذاته نقف عليه كلّما زارنا أخ أو أخت تركناهم صغاراً ونراهم يكبرون مع مرّ السنين ونحن نشعر بأنفسنا وكأنّنا لم نتغيّر»[28].

وفي لحظات الوقوف خارج الزَّمن وعلى حافة القطيعة مع كلّ ما هو إنساني، يعمل المُعتقَل، بشكلٍ واعٍ أو لا واعٍ، على تحويل مفهوم الزَّمن المجرّد إلى عُملة صعبة للتفاوض «على الدقائق المعدودات»، على تمديد الزَّمن المُحدَّد بصرامة وقسوة من قبل السجّان، حتّى بأصغر وحداته (الثانية- الدقيقة). في تفكيك صورة العلاقة الثلاثيّة المعقّدة بين المُعتقَل والسجّان والزَّمن، يفرض السجّان وجوده عبر نفيه للزَّمن، بينما يضطّر المُعتقَل إلى تسخير وجوده ليمسك عقارب ساعة لا مرئيّة تمنحه بضع دقائق يسدّ فيها حاجات جسده الأساسية المُذهلة في بساطتها وغريزيّتها، كالذهاب إلى المرحاض أو الاستحمام لدقائق أو تناول بعض الطعام. يقول كمال الشارني:

«رافقتُه عارياً إلى مرحاض لا يبعد سوى خطوات عن الغرفة ناسياً حالة العري التي أنا عليها. سألتُه عن الساعة فقال برقّة مُفاجِئة:

- من الأفضل ألا تحتاج إلى معرفة الوقت. تفتح غرف العزل كلّ يوم في الساعة الواحدة بعد الزوال. يجب أن تُعَوِّدَ نفسكَ على موعد الواحدة نهاراً كلّ يوم لأنّني لا أعرف متى ستنتهي عقوبتكَ. أنصحكَ بتقسيم الأكل على مراحل، لأنّك سوف تجوع في الليل، كما أنصحك أن تتعوّد على التبوّل والتبرّز في الوقت المناسب»[29].

(27) سمير الساسي، مرجع سابق، ص 98.
(28) فتحي بن الحاج يحيى، مرجع سابق، ص 75.
(29) كمال الشارني، مرجع سابق، ص42.

- «عندما يُخيِّم اللّيل وتنغلق علينا أبواب الجناح لتُضاف إلى أبواب الزنازين المغلقة بطبعها كامل اليوم، عدا نصف الساعة التي نفاوضها بالدقيقة مع الحرّاس لفسحة فردية في الـ «آريا»، وقضاء حاجة في المرحاض الجماعي خشية أن يفيض السطل داخل الزنزانة في ما تبقى من اليوم، عندها تبدأ حياة أخرى، نتدارس فيها أوضاعنا ونتناقش في ما بيننا»[30].
- «حصّة الدوش أسبوعية. نتأهَّب لها منذ اليوم السابق. الأدواش معلَّقة في السقف فينهمر الماء بقسطاس لبضع دقائق. دفعة أولى ريثما نرغي الصابون على أجسادنا ثمّ دفعة ثانية للـ«تشليل» النهائي. وكنّا دائماً نُفاوض على الدقائق المعدودات. ومع الزَّمن بدأت الدقائق تطول»[31].
- «فأن ترى يومك واقفاً أو جالساً، تُعاشِر مئة أو يزيد، وجوهاً لا تتغيّر سنين عديدة، همّك كيف تقضي حاجة بشرية في كنيف تنبعث روائحه في أرجاء الغرفة حتّى تكاد لا تجد فيها متنفّساً نقيّاً، أو الحصول على رغيف يعطيكه الجلاد كأنّما يرمي به إلى كلاب... أو يتعالى صياحكم فذلكم الدُشّ أو الاستعداد له حيث علينا أن نتسابق كخيول رهان»[32].

ويتعامل بن سالم مع جسده باعتباره «آخر» ما يتوجَّب عليه تقنين احتياجاته لئلّا يُصاب هو بكارثة صحّية تُضعفه أمام السجّانين: «كنتُ في زنزانة 16 بالدور الرابع (في وزارة الداخلية)، لم يكن فيها دورة مياه ولا يحقّ لي الذهاب إلى المرحاض إلّا مرّة في اليوم ولمدّة لا تزيد على دقيقة واحدة ممّا حدا بي إلى الإحجام عن الأكل حتّى لا أُصاب بكارثة صحيّة»[33].

خلاصة

لم يتطرَّق مؤلّفو الكُتب الأربعة بشكلٍ مُباشر إلى مفهوم الزَّمن والإحساس به في

(30) فتحي بن الحاج يحيى، مرجع سابق، ص 46.
(31) المرجع السابق، ص 148.
(32) كريم الساسي، مرجع سابق، ص 72.
(33) المنصف بن سالم، مرجع سابق، ص47.

فترات اعتقالهم وسجنهم. كما لم أجد فيها، أيضاً، حواراً يدور بين المُعتقلين، أنفسهم، عن أهمّية الزَّمن أو توقّفه أو سيرورته بشكلٍ مُباشر، لذلك يتطلَّب إدراج أو مقارنة تجاربهم مع ما هو متوفِّر من كتابات نظرية أو فلسفية جُهداً إضافياً يُمعِن في استقراء النّصوص، ويتجاوز الجهد الأوّلي لهذه المقالة؛ إذ لا شكّ في حضور الزَّمن عبر إشارات وكلمات ذات دلالات حتّى في أحلك ساعات التعذيب أو العزلة أو/ في دقائق انتظار مقابلات الأهل. وينطبق هذا على مفاهيم تتعلّق بالحضور والغياب، واللّعب في / أو مع الزَّمن، وتجميد أو تسريع الزَّمن، ووطأة الحاضر مقابل ثقل الماضي، واختلاط الماضي بالحاضر بالمستقبل، أو علاقة الزمان بالمكان.

ولعلّ أهمّ أسباب الصعوبة في التحليل والمُقارَنة هو أنّ مؤلّفي هذه الكُتُب من المُعتقَلين سابقاً، باستثناء فتحي بن الحاج، إنّما يلجأون إلى الكتابة للمرّة الأولى في حياتهم، والهدف الأساسي للكتابة هو توثيق ما مرّوا به باعتبارهم سجناء رأي وقضايا كبيرة. فالجانب الشخصي، بالنسبة إليهم، أمرٌ ثانوي، وإذا ما كتبوا عنه فإنّما يكون ذلك لتبيان قسوة الجلّاد والنّظام وشراستهما، ليبقى الجانب الاجتماعي، أو بالأحرى الجمعي - الحركي - التاريخي - الفكري الذي يمثّلونه هو الأساس. ينعكس هذا الخيار على الإحساس بالزَّمن الذي يضعه المُعتقَل في حيّز المشاعر الشخصيّة، ولا علاقة مباشرة له بالفِكر في ما عدا إبقاء الذهن مركّزاً على القضايا الكبرى.

إنّ الزَّمن الذي يعيشه المُعتقَل هو زمنٌ سجنيّ يتميّز بقيمته المختلفة عن الزَّمن المُتعارَف عليه خارج السجن، في الفضاء المفتوح، والمُستنِد إلى الوحدات الزَّمنية. فالسجين لا يستطيع التحكُّم بالزَّمن السجني، وهو مفروض عليه من قبل المُحقِّق أو الجلّاد أو السجّان، بحسب متغيّرات تختلف إذا كان المُعتقَل السياسي في مرحلة التحقيق الأوّلي أو منعزلاً في الزنزانة، حيث يتمطَّط الزَّمن فيبدو لا نهائياً، أو عند السماح بزيارة الأهل حيث يتسارع الزَّمن متحوّلاً إلى دقائق، أو انتقاله إلى قاعة تضمّ سجناء آخرين، أو عند إطلاق سراحه، وإدراكه عندئذ، ومع أولى خطواته خارج السجن، حجم قطيعته الزَّمنية مع العالَم الخارجي ومدى هذه القطيعة.

التسلسل الزَّمني في المُعتقَل مختلٌّ في سيرورته، حيث تُهيمِن جزئيّات التعذيب على المسار الطبيعي للزَّمن، لينعكس ذلك على نسق النصوص ككلّ، وعلى انتقائيّة

سرد الأحداث المُستخلَصة من الذاكرة. وهي انتقائيّة يجمعها همّ البحث عن معنىً لما تعرَّض له المُعتقَل، وهمّ غربلة الحقيقة، وتوثيق التجربة المريرة التي أرادتها السلطات القمعية عقاباً لكلّ مَن يعارضها، على مدى عقودٍ طويلة.

المصادر والمراجع

- بن الحاج يحيى. فتحي، **الحبس كذاب.. والحي يروح – ورقات من دفاتر اليسار في الزَّمن البورقيبي**، الطبعة الثالثة، تونس: كلمات عابرة، 2011.
- بن سالم. المنصف، **سنوات الجمر – شهادات حيّة عن الاضطهاد الفكري واستهداف الإسلام في تونس**، طباعة خاصّة، 2013.
- الجويني. البشير، **أهم مميّزات مرحلة ما بعد الاستقلال**، مقابلة شخصية بتاريخ 22/ 4/ 2016.
- الزموري. محمد، **سؤال الكينونة في المتخيل السجني**، متاح على الرابط: http: / /www.aljabriabed.net /n78_06azammouri.(1).htm
- ساسي. سمير، **برج الرومي أبواب الموت -أوّل رواية عن تعذيب المساجين الإسلاميّين في السجون التونسية**، الطبعة الرابعة، تونس: منشورات كارم الشريف، 2012.
- الشارني. كمال ، **أحباب الله – رواية عن فساد نظامي بورقيبة وبن علي كما عاشه سجين سياسي بين سجني الكاف والقصرين**، تونس: منشورات كارم الشريف، 2012.